تقديم

تشكل رحلة الكتاب العربي المطبوع حدًا فاصلاً وبارزًا في تاريخ الطباعة العربية، فمنذ ظهور المخطوط العربي في القرون الأولى من الهجرة، وقد استطاع أن يهيمن على معطيات نسخ وتداول حركة الكتب أو المخطوطات، فلقد كان أول كتاب أو مخطوط نُسخ، ونُشر، ووُزع بالمعنى الحديث للكلمة، هو القرآن الكريم، ثم تتابعت الكتب من بعده تتناول علوم الفقه، والحديث، والتفسير، والطب، والفلك، والجبر، والرياضيات،.. الخ.

استطاع المسلمون فيما بعد أن يطوروا أسلوب نسخ مخطوطاتهم أو كتبهم، خاصة بعد التوصل إلى تقنية تصنيع الورق، والتي عرفوها من الصينيين، وقد استطاع المسلمون أن يطبعوا بعض الكتب في العصر العباسي باستخدام القوالب الخشبية، حيث عثر في مصر على بعض هذه القوالب.

لم يمض وقت طويل على دخول الورق إلى أوروبا، حتى استطاع جوتنبرج تفعيل الطباعة بالأحرف المعدنية المنفصلة، وهو اختراع توصل إليه الكوريون قبله بحوالي 73 عامًا، لكن جوتنبرج هو الذي فعّل هذا الاختراع، واستخدمه في الأغراض التجارية.

obeikandl.com

ومن مفارقات القدر أن يكون أول مطبوع عربي في العصر الحديث من إنتاج الأوروبيين، وليس العرب أو المسلمين. كان هذا الكتاب هو «قاموس عربي–إسباني»، نشر في عام 1505 م، بقصد محاولة تنصير العرب المسلمين في إسبانيا. ثم توالى بعد ذلك تأسيس المطابع العربية في أوروبا، وتشهد إيطاليا أولى تلك المطابع، وقد انتشرت بعدها في كل من فرنسا، وألمانيا، وهولندا، ثم إنجلترا.

ظهر فن الطباعة في الوطن العربي في القرن السابع عشر، وبالتحديد في عام 1610 م، في لبنان مع إنشاء المطبعة المارونية، والتي أصدرت في ذلك العام الإنجيل بحروف سريانية، وكرشونية. أما أولى المطابع التي طبعت كتبًا بالحرف العربي فكانت في حلب في عام 1706 م، ثم تبعتها مطابع أخرى في لبنان.

وقد عرفت مصر منذ وقت مبكر فن الطباعة، لكن تأسست أول مطبعة رسمية في مصر في عهد محمد علي باشا في عام 1822 م، وهي مطبعة بولاق، والتي أصبحت تُعرف الآن باسم الهيئة العامة للمطابع الأميرية. لعبت مطبعة بولاق دورًا مهمًّا في تاريخ مصر الحديث والمعاصر حيث عملت على تشجيع حركة تأليف ونشر الكتاب العربي المطبوع. وقد تميزت مطبوعات بولاق بتناولها للعديد من جوانب العلم، والمعرفة، سواء الشرعية، أو العملية من طب وفنون عسكرية، ... الخ. ومن هنا نستطيع أن نقول بلا أدنى شك أو مبالغة إن إنشاء مطبعة بولاق، أو المطبعة الأميرية، أو مطبعة صاحب السعادة كان ولا يزال أحد أهم وأعظم إنجازات محمد علي باشا خلال مسيرته الإصلاحية، بل نستطيع أن نقول دون تحفظ إنها الأكثر أثرًا وأعمها فائدة على تحديث فكر وثقافة الشعب المصري. فقد منحت الثقافة المصرية على طول تاريخها

الريادة لهذا الوطن على المستويين العربي والدولي. فالقدرة على تحديث المنظومة الثقافية، هي الشرط الأساسي لتحديث المجتمع في شتى مجالاته سياسيًّا، واقتصاديًّا، واجتماعيًّا بل وعسكريًّا أيضًا، حيث يرتبط التجدد والتحديث في المجتمعات –بالدرجة الأولى– بالتحول في المفاهيم التي تمنع أو تحول دون هذا التجدد، فالمجتمعات في ممارستها الحياتية تمثل ثقافتها، وهي التي تنظم حياتها وتحميها، وتنتج أدوات الواقع في مجتمعاتها. وبعبارة أخرى، يصعب إنجاز أي تحديث أو تجديد حقيقي بتجاهل ثقافة المجتمع أو القفز عليها، فقد آمن وأدرك محمد علي باشا هذا المبدأ من ما يزيد على قرنين من الزمان فجاء إنشائه لمطبعة بولاق.

ساعدت هذه المطبعة محمد علي في إيصال أفكاره ومعتقداته الفكرية، والثقافية، والاقتصادية إلى أبناء الشعب المصري، الذي كان لا يعرف شيئًا عن سياسات الحكام والملوك إلا من خلال النداءات التي تلقى في الأسواق. فقد جاء العدد الأول من الوقائع المصرية، والتي طبعت في مطبعة بولاق، ليخبرنا كيف أن محمد علي كان مؤمنًا بإيجاد وسيلة اتصال بينه وبين الشعب المصري، يطلعهم على إنجازاته وأهم متطلبات مسيرته التحديثية. فخلال سنوات عمرها، التي بلغت ما يزيد على 185 عامًا، احتلت المطبعة مكانتها كأداة فعالة في نشر الإصدارات المختلفة من كتب، وقوانين، ولوائح، وصحف، ومستندات حكومية.

ومن المنصف أن نذكر أن المطبعة قد مرت في فترات من تاريخها بعدة أزمات من أشهرها إغلاقها في عهد الوالي محمد سعيد، ثم منحها إلى عبد الرحمن باشا رشدي في عصره، ثم ضمها إلى الدائرة السنية في عهد الخديوي إسماعيل، إلى أن استقرت في كنف الحكومة المصرية في عهد الخديوي توفيق. لكنه على الجانب الآخر كانت وما زالت في معظم فتراتها قوية فتية شاهدة على أحداث عصرها بما تصدره من مطبوعات.

ويتعرض هذا الكتاب لدراسة وتحليل العناصر المكونة للكتاب العربي، وكيفية صناعته، ثم يتناول دراسة ببليوجرافية لأوائل المطبوعات المصرية، وهي تلك التي صدرت عن مطبعة بولاق، حيث يتطرق الكتاب لكيفية كتابة صفحة العنوان، والمقدمة، وتاريخ الطبع، وتطور هذه العناصر حتى وصولها إلى الشكل الحالي.

ثم يذكر أثر الطباعة في النمو الثقافي والمعرفي للمجتمع المصري في القرن التاسع عشر، وهي فترة الدراسة، على أمل أن نستكمل هذه الدراسة في مؤلف لاحق يتناول الكتاب العربي المطبوع من مطبعة بولاق وحتى العصر الرقمي.

المؤلفان

د. خالد عزب - أحمد منصور

الإسكندرية إبريل 2008

obeikandl.com